المسلمون هم أحرار هذا الكون

[illegible]

أول سطر في كتاب الإسلام ، هو سطر التوحيد

« لا إله إلا الله . . . »

ولا إله إلا الله . ليست كلمة تقال . وإنما هي حقيقة تحيا في قلب كل مسلم كامل الإيمان ، حقيقة تشرق في القلوب فتلهمها ، أن الخير والشر بيد الله ، وأن القوة والنصر من عنده ، وأن لا شيء في الوجود إلا بأمره .

وإذن فالمسلم لايخشى سوى خالقه ، ولا يأبه لغير مولاه ، ولايرهب سواه وبتلك العقيدة الربانية عاش المسلم حراً كريماً صريحاً جريئاً لايرهب جباراً لقوته ، ولا يخشى بأس طاغية ، ولا يتزلف لصاحب جاه أو سلطان ، ولا يتقي في الحق لومة لائم ، لأنه يؤمن بأن الله جل جلاله هو القوة العليا ، وهو تبارك وتعالى الفعال لما يشاء ويريد ، فالزلفى إنما تكون له ؛ والخشية منه ؛ والخشوع في محاريبه ؛ والسجود في صلواته .

وبتلك العقيدة الربانية أصبحت الحرية في الإسلام أوسع حرية عرفها البشر : حرية تتضاءل حيالها حريات الثورة الفرنسية المزعومة وتتخاذل أمامها مواثيق تحرير الإنسان المدعاة . لأنها حرية شاملة ارتبطت بعقيدة مقدسة ؛ بل لقد غدت هذه الحرية لدى المسلم فريضة ربانية ؛ هي قوام الإسلام وروحه ومبناه ومعناه .

فليس بمسلم من خشي غير الله . وليس بمسلم من أذله الطغيان . أو استعبده الاستعمار ، أو ذهب بحريته بطش الباطشين ، وصولة الصائلين أيا كانت قوتهم وأيا كان جبروتهم .

فلا إله إلا الله هي بحق وثيقة التحرير الكبرى للإنسانية كافة ؛ بل هي أكبر

هتاف عرفته البشرية لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان .

يقول رسول الله صلوات الله عليه : يا ابن عباس انتبه لما يلقى إليك واحفظه ، لو اجتمع الإنس والجن على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولو اجتمع الإنس والجن على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله لك مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ذلك هو النبع المتدفق فى قلب كل مسلم ، ومن هذا النبع نشأت العزة الإسلامية فالعزة الإسلامية قرينة وتبع للوحدانية الربانية . ولهذا كان الرسول صلوات الله عليه يقـــول لأصحابه إياكم والشرك الخفى ، قالوا وما الشرك الخفى يا رسول الله ؟ قال دقيق الرياء . . ؟

والمسلم هو خليفة الله على أرضه ، لأنه القائم بدعوته ، المكلف بهداية الكون وقيادته ، والمسلم هو السيد المنتصر لأنه من حزب الله ، وحزب الله هو الغالب الفائز ، والمسلم حليف الله يمده ويؤيده أم تقاتل معه الملائكة . أم تؤيده عناصر الطبيعة ؟ ، إذن فالمسلم هو من يشعر دائماً بأنه مع الله وأن الله معه . وهل هناك عزة فى الوجود أعلى أو أغلى من هذه العزة .

فهم المسلمون فى صدر الإسلام هذه المعانى فهما قلبياً وجدانيا ، ففهموا أنهم حزب الله وخلفاء الله وحلفاء الله ، فتخلقوا بأنوار تلك المعانى ، وترفعوا عما سواها ، واندفعوا إلى الدنيا هداة فاتحين فى جوانبهم قوى معنوية لا تعرف إلا النصر ، قوى طابعها الإيمان والعزة واليقين المطلق .

« سأل قيصر أحد قواده : كيف انهزمت قواتك المدربة القوية أمام هؤلاء العرب الحفاة العراة فقال :

« يا مولاى ، كان كل جندى معى يؤمن بالهزيمة فانهزمنا ، وكان كل مسلم يؤمن بالنصر فانتصروا »

وسئل جندى إسلامى : كيف انتصرتم على الفرس [illegible]
[illegible] قلة وأقل سلاحاً . فقال :

« انتصرنا لأن الواحد منا إذا رأى سهماً منطلقا إلى صدر أخيه الواقف إلى جانبه: قفز من مكانه ووقف أمامه يتلقى عنه السهم ، فكان كل منا يبيع حياته ليشترى حياة أخيه » .

وانهزم أعداؤنا لأن الواحد منهم إذا رأى سهماً متجها عليه قفز من مكانه ليختبىء وراء جاره فكان كل منهم يبيع حياة أخيه ليشترى حياته .

وصاح رجل فى يوم اليرموك ما أكثر الروم ، وأقل المسلمين ؛ فهتف خالد ابن الوليد « ما أقل الروم وأكثر المسلمين ؛ إنما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان .

وسئل الصديق عن سر انتصار المسلمين وفتوحاتهم ؛ فقال : إن السر شىء وقر فى الصدور من هذا الدين .

أجل ، أنه شىء وقر فى الصدور من هذا الدين ؛ وهل هناك مايوضح هذا الشىء الربانى الذى وقر فى صدور المسلمين من تلك القصة الملهمة المؤمنة ، قصة عبادة ابن الصامت مع المقوقس حاكم مصر ونائب الرومان .

وتبدأ القصة يوم توجه الفاتح الإسلامى عمرو بن العاص لفتح مصر على رأس أربعة آلاف من الجند الإسلامى وهو حادث فذ فى التاريخ لا مثيل له فى الصحف العسكرية ؛ مصر الكبيرة المنيعة المدججة بالسلاح ، العامرة بجند الرومان وأبطالهم ودهاة قوادهم يهاجمها بغية الاستيلاء عليها أربعة آلاف جندى من بجاهيل الصحراء ! .

إنها لمعجزة والتاريخ العسكرى للإسلام عامر بالمعجزات الزاخر بالأمجاد والمفاخر طرق عمرو أبواب مصر ، وطوق حصن بابليون وأذاق الرومان باس الأسلحة الإسلامية فأرسل إليه المقوقس يطلب منه أن يرسل رجلا من قادة الجيش للمفاوضة .

واستجاب عمرو فأرسل للمقوقس البطل الإسلامى « عبادة بن الصامت » وهو عملاق أسود ، ولكن الإسلام لا يعرف ألوان ولا الجنسيات ، ولا يعترف بسادة وعبيد .

واخترق عبادة بجواده مواكب الرومان حتى وصل إلى باب المقوقس فترجل

وأبى أن يؤخذ منه السلاح . قائلا إننا فى دار حرب فلا نترك السلاح أبداً .

ودخل عبادة على المقوقس ، وهو يتوكأ على رمحه رافع الرأس شامخ الأنف ورأى المقوقس ما فى الرسول القادم من عزة وكرامة فأراد أن ينال منه ، فلم يشر بإجلاسه . وأحس عبادة بالأمر ، فمضى قدماً حتى جلس بجوار المقوقس على عرشه وتواثب الجند يريدون انزاله فقال لهم : إننا نؤمن بدين ، هو دين الأحرار ، دين لا يعرف إلا المساواة ولا يقر التفاضل حتى أننا كما نجلس مع نبينا كما يجلس بعضنا إلى بعض ، وهكذا نحن مع خليفته ، أما أنتم فقد تقسمتم سادة وعبيداً ، وضربتم على كثرتكم بالذل والهوان ، وعلى كل فلنأخذ فيما جئت من أجله ، ماذا تريدون منا ؟ .

وتكلم المقوقس بلغة الدبلوماسى الداهية فقال : « لم يكن عندنا أذل منكم معشر العرب ولا أهون شأنا ولهذا عجبنا أن جئتم إلى بلادنا فى هذا العدد القليل والعدة الضعيفة ، وان أنتم إلا صولة يوم وجولة ساعة ، إذا أرسلنا عليكم جنودنا أولى البأس الشديد والعدد الكثير والعدة الضخمة ، ولكننا رأفة بكم ورحمة منا سنعفو عنكم ونعقد معكم صلحاً بعد أن نعطى لكل قائد ولكل جندى مايسره ويرضيه .

وضحك عبادة طويلا ، فقال له المقوقس : عجبا ! أأضحكتك أم أرعبتك؟ قال كلا ، لقد أضحكتنى وسررتنى لأننا منكم على إحدى الحسنيين فقد ذكرت لى عددكم وعددكم وأموالكم وأسلحتكم فإذا انتصرنا ظفرنا بكل هذا وإن ظفرتم بنا كان هذا عذراً لنا عند ربنا وفزنا بالاستشهاد والجنة وهى لعمر الحق أحب الحسنيين إلينا ، إننا الفائزون، إما النصر أو الشهادة ، قال المقوقس : هذا عزم من السماء ، لا يلين ولا يقهر .

إن عزم المسلم من إرادة ومن نور السماء ، فهو عزم لا يلين ولا ينثنى ولا يقهر أبداً . . . اليست العزة لله ، ولرسوله وللمؤمنين .

وبعد : وخطابى هذا أوجهه إلى أربعمائة مليون مسلم ، هل آمنا حقا بلا إله إلا الله وهى السطر الأول فى كتاب الإسلام ؟؟ . .